

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

علم القلوب - الدرس : 04 - الشكر : لئن شكرتم لأزيدنكم

13-02-1999

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف و تسخير تكريم :

أيها الأخوة الكرام: من الآيات الجامعة المانعة في شأن العقيدة قوله تعالى:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ﴾

[سورة النساء الآية:147]

يبدو أن الإنسان حينما يؤمن ويشكر يحقق الهدف من وجوده, لماذا؟ لأنه في الأصل إحسان من الله عز وجل؛ منحه الله نعمة الوجود, أنت موجود.

إذاً: هذه نعمة الله الكبرى لك؛ منحك نعمة الوجود, ومنحك نعمة الإمداد, ومنحك نعمة الهدى والرشاد, فأنت أثر من فضل الله عز وجل.

فالله عز وجل سخر هذا الكون لك تسخيرين؛ تسخير تعريف وتسخير تكريم في وقت واحد.

لو أن لك صديقاً على مستوى رفيع جداً في الإلكترونيات, واخترع جهازاً, وقدمه لك هدية, فأنت أمام شعورين؛ شعور الإكبار لهذا الجهاز الذي قدم لك خدمة كبيرة, وشعور الامتنان لأنه قدمه لك هدية. فالكون مسخر تسخير تعريف, وتسخير تكريم.

وقد أشار النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى هذا, لما رأى الهلال قال:

((هلال خير ورشد))

[أخرجه أبو داود عن قتادة]

وقس على هذا الحديث كل شيء؛ الابن أرشدك إلى الله, كيف كان نقطة ماء فصار كائناً بالغ التعقيد, الماء العذب الزلال أرشدك إلى الله, وانتفعت به, والابن أرشدك إلى الله, وانتفعت به, والطعام والشراب أرشدك إلى الله, وانتفعت به.

من آمن و شكر حقق الهدف من وجوده :

كل شيء خلقه الله له وظيفتان: وظيفة نفعية، ووظيفة إرشادية؛ الحقيقة الوظيفة الإرشادية أكبر بآلاف المرات من الوظيفة النفعية؛ لأن الوظيفة النفعية تنتهي عند الموت، لكن الوظيفة الإرشادية تمتد إلى أبد الأبدين.

فالإنسان حينما يفكر في شيء، ويعرف الله من خلاله، فقد حقق الهدف من وجود هذا الشيء، أما إذا انتفع به فلم يحقق شيئاً.

العالم الغربي بأكمله ينتفع من النعم إلى أعلى درجة، ولكنه ما عرف الله، عطل أكبر هدف للشيء. فهذه الآية أيها الأخوة:

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾

[سورة إبراهيم الآية:7]

حينما تشكر تحقق الهدف من وجودك؛ لأن في الأساس وجودك نعمة، منحة، فضل.

أحياناً الإنسان يشتري بيتاً، يدفع ثمنه، صاحب البيت الذي باعه البيت لا يستطيع أن يقول له كلمة أنا تفضلت عليك، أخذت ثمنه، أخذت ثمنه عدأً ونقداً، ولم تتسامح معي ولا بليرة، أما إذا إنسان قدم لك البيت كهدية، والبيت ثمين جداً، اختلف الأمر.

فأنت أمام منحة من الله، أنت فضل كلك، أولاً: وجودك، وما أمك به، ونعمة الهدى التي أنعم الله بها عليك؛ فأنت نعمة، وما حولك نعمة، الكون كله مسخر لك بنص الآية الكريمة:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾

[سورة الجاثية الآية:13]

فرد فعل هذا الكون المسخر لك؛ الوظيفة الإرشادية أن تؤمن، والوظيفة النفعية أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت فقد حققت الهدف من وجودك.

معرفة الله عز وجل هو الشيء الذي يرجح بين المؤمنين :

معنى هذا أن الشكر ليس شيئاً استثنائياً، أنت عملية طوعية؛ لأن أصل وجودك نعمة، ومخلوق للسعادة، فينبغي أن تشكر، تشكر من يجب أن تشكر:

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾

[سورة النساء الآية:147]

أحياناً الإنسان يقدم هدية لمريض, يعمل بطاقة هذه من فلان, المريض كيف يشكر إن لم يعلم أن هذه الهدية منك؟ انظر تلازم الشكر مع العلم, هذا المريض الذي قدمت له هدية, لو دخل عليك عشرة أشخاص, وشخص منهم معه هدية, ولا يوجد بطاقة, لا تعرف هذه ممن؟ أما لو قدم بطاقة فتعرف هذه ممن, فإذا التقيت به مرة ثانية, تشكره على هديته, فهذا منطلق.

فكرة دقيقة جداً يقول الله عز وجل:

﴿لِنُ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾

[سورة إبراهيم الآية:7]

قال بعض العارفين بالله: لنن شكرتم نعمتي لأزيدنكم طاعتي, ولنن شكرتم طاعتي لأزيدنكم خلوتي, ولنن شكرتم خلوتي لأزيدنكم قربي, ولنن شكرتم قربي لأزيدنكم الغنى, ولنن شكرتم الغنى لأزيدنكم معرفتي, ولنن شكرتم معرفتي لأزيدنكم رؤيتي ووصالي, فزيادة كل مقام بمقدار ذلك المقام.

إنسان شكر أنه أعانه الله على طاعته, الآن الشكر على الطاعة يسبب قرباً.

هذه الخلوة؛ أنا جليس من ذكرني, وحيث ما التمسني عبدي وجدني.

إن شكرته على القرب فيما بينك وبينه زادك غنى, الغنى حالة راقية جداً, أن تستغني بالحق عن الخلق, المؤمن عزيز النفس؛ المؤمن لا يتذلل لأحد, لا يتضعض لأحد, لا يصغر أمام أحد, أغناه الله عن الخلق, فالغنى أن تستغني بالحق عن الخلق.

لنن شكرتم الغنى لأزيدنكم معرفتي.

الحقيقة المعرفة شيء ثمين, والشيء الذي يرجح بين المؤمنين هو معرفة الله عز وجل.

من عرف الله زهد فيما سواه :

الآن: النبي عليه الصلاة والسلام طبق المنهج مئة في المئة, وأي مؤمن صادق ينبغي أن يطبق المنهج مئة في المئة, ولكن الفرق بين مقام الأنبياء وبين مقام المؤمن فرق المعرفة, أما التطبيق فواحد.

الطبيب يجب أن يعطي المريض حقنة, فهناك إجراءات لا بدّ منها؛ تعقيم مكان الإبرة, تعقيم الغطاء, تعقيم الإبرة, فهذا يفعله أكبر طبيب, وأصغر ممرض, أما الفرق بين الممرض والطبيب ففرق معرفة, والمنهج الإلهي يطبقه أقل مؤمن وأعظم نبي, الفرق بينهما فرق معرفة.

قال: ولنن شكرتم الغنى لأزيدنكم معرفتي, ولنن شكرتم معرفتي لأزيدنكم رؤيتي ووصالي. الإنسان ذاق كل شيء في الدنيا, لكن لو أنه ذاق طعم القرب لزهد في الدنيا, من عرف الله زهد فيما سواه.

إنسان جائع جوعاً شديداً، ثلاثة أيام لم يأكل، فوجد قطعة خبز يابسة مثلاً، بدأ يأكلها، لو التفتت إلى جهة وجد الطعام، واللحوم، والمقبلات، والعصير، فوراً يترك هذه القطعة اليابسة، ويلتفت إلى الطعام النفيس. فمن لم يزهد في الدنيا فهناك دعوة أن أعرف الله، لو عرفه حقيقة لزهد في الدنيا.

قال: لئن شكرتم الفقر لأزيدنكم فقراً ليس لئن شكرتم لأزيدنكم، إنسان فقير، شكر الله على نعمة الفقر، فزاده الله فقراً! مستحيل، إذا شكر الفقر المادي زاده الله افتقاراً إليه، وهذه حالة قرب عالية جداً؛ كلما كنت أكثر افتقاراً لله كلما كنت أقرب إلى الله، فأنت شكرت وضعاً مادياً معيناً فعوض عنك الفقر المادي بغنى في الخلق، أي افتقار إلى الله.

**فبالافتقار إليك فقري أذفع وما لي سوى فقري إليك وسيلة
وما لي سوى قرع لبابك حيلة فإذا رددت فأني باب أقرع**

أنواع البلاء :

ولئن شكرتم البلاء لأزيدنكم بلاء، العلماء قالوا: البلاء على ثلاثة أنواع؛ أحدها الانتقام، وعلامته ضيق الصدر، وشكوى للخلق، إذا البلاء انتقام من الله وعقاب يرافقه ضيق شديد، والإنسان يضجر ويشتكى، وهناك بلاء لتكفير الذنوب، علامته ضيق القلب من دون شكوى للخلق، وهناك ابتلاء لرفع الدرجات، قال: هذا لا يصحبه لا ضيق نفس ولا شكوى للخلق. وهذه علامة دقيقة.

إنسان أصيب بمصيبة، المؤمن يصاب أحياناً بمصيبة، مرة أخ من الأخوان بعث لي رسالة عقب درس الجمعة، أنت تتحدث عن أمراض العضال كثيراً، هناك مؤمنون يصابون بهذه الأمراض، وأنت يفهم من كلامك أن كل إنسان معه مرض عضال يعاقبه الله، قلت: والله ما أردت هذا المعنى؛ لأن المرض نفسه للمؤمن رفع درجات؛ جاء مرض، وإنسان ضاق به ضيقاً شديداً، وشكا للخلق، فهذا المرض عقاب، أما إذا كان قد ضاق به، ولم يشك لأحد، فهذا تكفير، أما إذا ما ضاق به، ولم يشك لأحد، فهذا رقي درجات، قد يكون المرض نفسه، لكن انعكاسه عند الأشخاص متفاوت.

قال بعضهم: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، إذا كان الإنسان منصاعاً لأمر الله، شكر ما هو فيه، فالله عز وجل يرقبه إلى درجة الإيمان.

ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، معلوم عنكم أنه يوجد عندنا إسلام، وإيمان، وإحسان؛ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ فإذا الإنسان شكر طاعته لله، نقله الله إلى الإيمان، فإن شكر الإيمان، نقله الله إلى الإحسان.

ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم العرفان، معرفة الله أعلى مقام؛ فالشكر في مزيد، والشكر كثير - الشكر - في مزيد المزيد، والشكر في نهاية المزيد.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

أنت منحة من الله، أنت فضل من الله، أنت إحسان من الله، أنت حسنة من الله عز وجل، وجودك منحة. إنسان دخل لقصر، وتناول أطيب الطعام، وتلقى أعلى الترحيب؛ فكل الدخول، وكل الترحيب، وكل شيء هو منحة من صاحب البيت.

فالكلمة الأولى، والأخيرة، والجامعة، والممانعة هي الشكر، أن تشكره.

قال: "قد يكون المزيد أحوالاً، وقد يكون المزيد أفعالاً، وقد يكون المزيد أخلاقاً، وقد يكون المزيد صفات، وقد يكون المزيد ذاتاً، أو معلوماً، أو مفهوماً، وقد يكون المزيد معجلاً، أو مؤجلاً، وقد يكون في الدنيا، وقد يكون عند فراق الدنيا".

نستعرضهم واحدة واحدة: لئن شكرتم لأزيدنكم، قد يأتي المزيد أحوالاً أي الله يكرم الإنسان بحال طيبة، له حال مع الله طيبة، مرتاح، مطمئن؛ لا يوجد عنده قلق، لا يوجد عنده حزن، لا يوجد عنده حسد، سليم الصدر لكل الخلق؛ على أنه فقير أو غني، على أنه مريض أو صحيح الجسم، على أنه يعاني من مشكلات عديدة أو راضٍ عن الله، هذا إكرام الحال، إكرام الحال شيء مهم جداً.

تجد شخصاً محطماً؛ وهو صحيح محطم، وهو غني يعاني من ضيق نفسي، الشيء الغريب تجد شخصاً بالعكس، يعاني من ضيق مادي وهو في سعادة، يعاني من مرض وهو في سعادة، فقد يكون المزيد حالاً. إذا إنسان دخل لبيت من بيوت الله، صلى، لا يوجد شيء في بيت الله، كرسي لا يوجد، يجلس على الأرض، لا يوجد شيء من مظاهر الإكرام المادي، تدخل لبيت، هناك جلسة مريحة، على مقعد وسيع، قد يكون جسده حاراً، يفتح له المروحة؛ يأتيه كأس شاي، فنجان قهوة، فواكه، أحياناً غداء، بينما بيت الله لا يوجد فيه شيء إلا الجلوس على الأرض، إذا أين إكرام الحال؟ يخرج الإنسان مرتاحاً، يخرج متوازناً، يخرج من المسجد مطمئناً، يخرج من المسجد راضياً عن الله، يخرج من المسجد واثقاً، موعوداً بالجنة، يخرج من المسجد يشعر أن الله معه، وهو في رعايته، وفي ظله؛ يأتي أحياناً الإكرام أحوالاً، وأحياناً يأتي الإكرام أفعالاً، الله عز وجل يقدر على يدك الخير.

أنواع الإكرام :

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح لقوله تعالى:

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾

[سورة الأنعام الآية:132]

فإذا الله عز وجل قدر على يديك عملاً صالحاً كثيراً فهذا إكرام تناله من الله عز وجل، وأحياناً يأتي الإكرام أخلاقاً، الله يعطيك حلماً، وكاد الحلیم أن يكون نبياً، والحلم سيد الأخلاق؛ يعطيك حكمة، يعطيك حسن تصرف، يعطيك كلاماً سديداً، يعطيك فعلاً رشيداً.

أحياناً يكون الإكرام أخلاقاً، أحياناً يكون حالاً، أحياناً يكون صفة أي صفة ثابتة في الإنسان، أحياناً يكون ذاتاً، يعطيه ولداً صالحاً، يعطيه ذرية طيبة، أحياناً يكون الإكرام معرفة بالله.

فهناك إكرام معرفة، و إكرام ذات؛ وهبك الله ولداً صالحاً فهذا إكرام، صفات ثابتة هذا إكرام، أخلاق هذا إكرام، أفعال هذا إكرام أحوال؛ وهذا المزيد قد يكون معجلاً، وقد يكون مؤجلاً، قد تأتي الدنيا مجتمعة، وقد تأتي متأخرة..

إذا وجد أنك تستقيم من أجل مكاسب مادية أصبح هناك شائبة بالموضوع، والله يؤخر، يريدك أن تستقيم له من دون غرض مادي، وإذا كان إخلاصك عال جداً، يأتي الإكرام سريعاً؛ وقد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة.

يمكن إنسان في الدنيا لحكمة أرادها الله أن يكون إكرامه في الآخرة، فهذه بعض الحقائق عن الشكر الذي هو واجد:

﴿لِنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

[سورة إبراهيم الآية:7]

حالات الشكر :

هناك نقطة أخيرة: الشكر له ثلاث حالات؛ أول حالة حينما تعزو هذه النعمة إلى الله، فهذا أحد أنواع الشكر؛ إذا قلت: الله عز وجل أكرمني بالصحة، معنى هذا أنك عزوتها إلى صاحبها، وإذا امتلأ قلبك امتناناً بالشكر، فهذه نعمة ثانية، أما حينما ترد على النعمة بعمل صالح فهذا أعلى أنواع الشكر، لقوله تعالى:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾

[سورة سبأ الآية:13]